مجلة دراسات إنسانية واجتماعية (Journal of Social and Human Science Studies) ج وهران2/ المجلد 10 ع 3 / 16 /06/ 2021
ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

# العولمة والهوية في فكر طه عبد الرحمن.

## Globalization and Identity in Taha Abdel-Rahman's writing.


| | | |
|---|---|---|
| د. بن سعيد محمد. Bensaid Mohamed<br>bensaidmed67@gmail.com | فكر عربي معاصر | المختبر: الأنساق والبنيات، النماذج والممارسات، جامعة وهران2. معهد العلوم الانسانية والاجتماعية المركز الجامعي نور البشير- البيّض/ الجزائر. |


DOI 10.46315/1714-010-003-004

**الإرسال**: 2020/05/18 **القبول**: 2020/09/13 **النشر**: 2021/06/16

**ملخص:** ليس يخفى أن العولمة، ظاهرة عرفها المجتمع الإنساني، وهو يشهد تحولات تاريخية غير مسبوقة حيث سيطرت النظرة المادية على كل مظاهر ومناحي الحياة، وساد منطق اقتصاد السوق. بل وتعولمت الثقافة أيضا، وانخرطت المجتمعات الإنسانية في واقع حضاري، بدأت تتسع فيه بؤرة هاجس ضياع المحافظة على الهوية، حيث تزعزعت المفاهيم وتزلزلت القيم، وانهارت معالم الجغرافيا الطبيعية، إلخ ...

إن الانتقال من حالة التمايز الى حالة التجانس، الذي يميز طبيعة العولمة وخطابها الإيديولوجي، كان محل اهتمام المفكر المغربي طه عبد الرحمن(1944- الآن)، الذي عبّر عنه بما وصفه بنظام "السيطرة"، الذي يطال مجالات ثلاث :"سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية"، و"سيطرة التقنية في حقل العلم"، و"سيطرة الشبكة في حقل الاتصال".

**كلمات مفتاحية: الإسلام؛ الغرب؛ الهوية؛ العولمة؛ الحداثة.**

**Abstract:** It is no secret that globalization is a phenomenon known by human society while the latter is witnessing unprecedented historical transformations where the materialistic view has dominated all aspects of life, and the market economy has prevailed. Moreover, was affected by globalization as well. Human societies became involved in a imposed civilization reality characterized by the expanding loss of identity as concepts and values have been dented and the geography features have been collapsed, etc.

The transition from the state of differentiation to the state of homogeneity, which characterizes the nature of globalization and its ideological discourse, was of interest to the Moroccan thinker Taha Abdel-Rahman(1944 - now), who expressed it in the what he described as a system of "domination", which affects three areas :" the domination of the economy in the field of development", "technology domination in the field science", and "network domination in the field of communication. "

**Keywords : Islam; the occident ; Identity; Globalization ; Modernity.**

**- مقدمة:**

يندرج نص هذا المقال في حقل الفكر العربي المعاصر ، الذي يحاول معالجة قضايا الواقع العربي المعاصر الحافل بالإشكاليات والهموم، حيث يجد هذا الفكر نفسه في مواجهة مباشرة مع مختلف

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

المشكلات المعرفية والفكرية، والمنهجية والأيديولوجية المحلية أو الخارجية، والوافدة تحديدا من الغرب، هذا الآخر القوي في كافة مجالات الحياة. وربما كانت موضوعة العولمة وعلاقتها بالهوية، والتاريخ والمصير، من أهم القضايا الراهنة التي تفرض نفسها، وتتحدى الوعي العربي المعاصر.

إن مصطلح العولمة، يعني- من بين ما يعنيه- توجيه العالم نحو التوحيد في إطار حضارة واحدة، أي دمج العالم في منظومة واحدة على المستويات المالية والإعلامية والمعلوماتية، وهذا الدمج والتوحيد يرتكز على عامل أساسي استراتيجي، هو استخدام القوة. مما حدا بجنوح بعض الآراء إلى تهويل العولمة والاعتقاد بأن التعولم يحمل في ثناياه نهاية للإنسان، بل نهاية للتاريخ.

- ولقد كانت اشكالية العولمة وسؤال الهوية، محل اهتمام المفكر المغربي طه عبد الرحمن، حيث جاءت مواقفه وأفكاره منها، ومن الكثير من القضايا الأخرى المرتبطة بها ،إن بشكل مباشر أو غير مباشر، مميزة:

**فما حقيقة العولمة في تحليلات طه عبد الرحمن؟، وكيف يمكن درء آفاتها؟ وهل يستطيع التعولم المعاصر محو الإنسان(العربي والمسلم) ؟وهل في الاندماج في هذا التعولم، ضرر بالخصوصية وتصفية للهوية ؟.**

- اعتمدنا في تحليل هذه الأفكار والمواقف التي يترصع بها المتن الطهائي، والمتعلقة بالإشكالية المشار إليها، على المنهج التحليلي، بحكم طبيعة الموضوع، حيث تمكنا من تحديد وجهة نظره وعرضها ومناقشتها، من خلال تقييم عام لمعالم مشروعه الفكري:

**1- العولمة في تحليلات طه عبد الرحمن: المحددات والأبعاد.**

لا خوف على الهوية من موجة العولمة، فهذه الأخيرة ليست فعلا تاريخيا، أي ليست أثرا يحدثه التاريخ، بل العكس هو الصحيح تماما، إن العولمة فعل يصنع التاريخ، إنها ظاهرة تحرك التاريخ، واستقراء التاريخ الحضاري للأمم والشعوب، يجعلنا نقف على حقيقة هي أنه حيث توجد الأمة العظيمة في عصر من العصور، فثمة نوع من العولمة. هذا الموقف الذي يدافع عنه طه عبد الرحمن، يدفع إلى استنتاج مباشر هو أن لكل عصر عولمته، وهذه العولمة لا تأخذ شكلا واحدا، بل تتخذ أشكالا متنوعة ومتعددة، والسبب في هذا التعدد مرتبط بتعدد وتنوع العوامل المؤثرة والفاعلة في تعزيز السلطان الحضاري لهذه الأمة "العظيمة" أو تلك، في هذا الحضارة أو تلك، في هذا العصر أو ذاك.... وهكذا فقد يطغى في عصر ما، عامل عقدي أو إيديولوجي أو ثقافي، بينما يسود في عصر آخر، طغيان لعامل سياسي أو اقتصادي أو تجاري، وهكذا دواليك.....

إن العولمة إذن، هي التي توجد التاريخ الحضاري لحضارة ما، عبر تاريخ الإنسانية الطويل، ابتداء بالحضارات الشرقية القديمة، مرورا بالحضارة العربية الإسلامية خاصة، وانتهاء بالحضارة الغربية المعاصرة. يستنتج طه عبد الرحمن من هذا التحديد لدلالة مفهوم العولمة، كونها منتجة

للتاريخ، وليست نتيجة من نتائج مسيرته الطويلة، أن: "التاريخ يتعولم" (عبدالرحمن، ط، 2003، ص153).

إن المقصود بتعولم التاريخ، هو ذلك الفعل الذي يوجد التاريخ، وهذا يعني أن العولمة ليست حدثا أو فعلا أو ظاهرة حديثة أو معاصرة كما يظن الكثير من الدارسين، أو أنها ظاهرة حضارية أوجدتها الحضارة الغربية المعاصرة بحكم منجزات حداثتها غير المسبوقة، وبفعل توجيهها للتاريخ المعاصر. إن العولمة فيما يلاحظ طه عبد الرحمن، قديمة قدم التاريخ الحضاري، إنها ظاهرة ملازمة للوجود البشري، وللتاريخ الإنساني في كليته، تتناقلها الأمم على حسب قدرها من السلطة والقوة والتأثير في توجيه التاريخ، وبفقدان أسباب تلك "القوة"، تتلاشى "نسخة" العولمة، وتنتقل إلى واقع حضاري جديد مناسب حيث تترعرع وتسود إلى حين. ولما تذهب أسباب بقائها، فحتما ستذهب. تاريخ الأمم والشعوب إذن، عبارة عن "عولمات سابقة"، عاصرها معاصروها، وتعاملوا مع سلطانها وجبروتها، دون أن تتمكن من محو كينونتهم أو تبشر بنهايتهم، أو تدعي القول بـ"موت" الإنسان، أو نهاية للتاريخ كما يروج - لنا - الوعي الغربي المعاصر. لا ينبغي تهويل العولمة المعاصرة والنظر إليها- مثلها مثل النظر إلى مفهوم الحداثة - على أنها: "كائن تاريخي عجيب يتصرف في الأحياء والأشياء كلها، تصرف الإله القادر بحيث لا راد لقدره" (عبد الرحمن، ط، 2006، ص24). هذا التهويل مصدره الفلسفة الغربية، التي تنهل من معين المسيحية، مثلما نجد ذلك بارزا في أفكار وتحليلات ومواقف الفيلسوف الألماني "هيغل"(1770-1831)، الذي يعتبر أن عند الأمة الجرمانية ينتهي التاريخ.

وتنوع "العولمات" هو من تعدد العوامل المؤثرة كما ألمعنا. يعتقد الأستاذ طه عبد الرحمن أن ما يميز عولمة عصرنا الحالي، هو تفاعل عوامل رئيسية وأخرى فرعية حيث يزدوج العامل الاقتصادي بالعامل الإعلامي، وارتباطهما بالعاملين السياسي والثقافي(عبد الرحمن، ط، 2003، ص154). إن وعينا بهذه الجوانب في تحديد ماهية التعولم التاريخي، يجعلنا غير مذعورين أو مصابين بهوس تلاشي الهوية، وهاجس انهيار الخصوصية الثقافية، فالعولمة تفنى، والإنسان يبقى(عبدالرحمن، ط، 2003، ص151). فلكل زمان "إنسانه" الذي يناسب "تعولمه"، ويخبرنا الماضي صمود الإنسان أمام تعولم زمانه، وإذا كان الحال كذلك، وبالقياس، يمكننا القول إن التعولم الذي نعاصره لا يقوى على تغييبنا، أو محونا.

إن الإنسان وهو يطلب الحياة، فطر على معان سامية، بها تكتسب إنسانيته أرقى وأسمى معانيها، هذه المعان هي عبارة عن قيم يلتزم بها ويهتدي بها، والتي لا تتم إلا باقترانها برغبته وإرادته في الحياة، هذه الإرادة ينعتها صاحبنا بـ"إرادة الانتشار في الأرض"، ومن ثم فإن العولمة تغدو تعبيرا وتجسيدا لهذه الإرادة المخصوصة، يقول طه عبد الرحمن، واصفا هذا المعنى المميز لظاهرة العولمة: "اعلم أن العولمة عبارة عن التجلي الحاضر لإرادة الإنسان في أن ينتشر في الأرض، بحيث

يسعى هذا الإنسان إلى أن يحيط بجميع أطراف العالم"(عبدالرحمن، ط، 2012، ص209). على أنه ينبغي أن نفهم أن معنى الإنسان ليس كونه جملة من الوسائل أو الوقائع، فهذه حدوده الآلية، وإنما هو يتعدى ذلك، إنه مجموعة من القيم والمقاصد، والتي تجعل من هذا الإنسان عبارة عن آية وليس آلة. بل إنه فيما يقرر "آية قبل أن يكون آلة"(عبدالرحمن، ط، 2003، ص155)، وهكذا فهو- إن صح الوصف، وبلغة الوجوديين- آية بالماهية، وآلة بالوجود، وماهيته سابقة على وجوده.

يلاحظ الأستاذ طه عبد الرحمن أن هذا الفهم للعولمة، يجعلنا نستنتج أن التعولم المعاصر الذي يجري في التاريخ الإنساني، لا ينبغي أن تجعلنا نعتقد في هذا التاريخ، أنه عبارة عن مسار للأحداث يسير بكيفية مضبوطة ومراقبة، بل إن التاريخ أحداث تتشكل وتُصنع لكنها ليست مأمونة، يقول الأستاذ طه في هذا الصدد: "إن التاريخ يدخله الاستدراج، وهو أن تسير الأحداث وفق توجيه غير التوجيه الذي رُسم لا من حيث يُظن أنها تسير وفق التوجيه المرسوم لها، كما يدخله المكر، وهو أن تُفضي مراقبة الأحداث إلى نقيض المقصود من حيث يُظن أنها تفضي إلى المقصود، أي أن التاريخ مصنوع غير مأمون"(عبدالرحمن، ط، 2003، ص155).

هذا التحليل لحقيقة التعولم المعاصر، يجعلنا ندرك حقيقة هامة لا مفر منها، وهي أننا منخرطون فيه سواء كان ذلك بوعينا وإرادتنا، أو بدون ذلك. لكن لا ينبغي ذلك أن يرعبنا أو يخيفنا أو يجعلنا نتشاءم أو نحزن، لأن التعولم والإنسان يقفان على طرفي نقيض كما تقدم، فمهما اشتدت غلواء التعولم فإن مصيره إلى زوال، بينما يبقى الإنسان على مسرح الحياة، يواصل بسط سلطانه على هذا التعولم، وتظهر معالم هذا السلطان- فيما يعتقد طه عبد الرحمن- من زاويتين اثنتين هما:

- قدرة الإنسان على إبداع القيم النافعة.
- إمكانية تعثر التعولم على التحكم في مساره، فيفقد حسن توجيه خططه وأهدافه.

لذلك يظل الإنسان دائما بالمرصاد لكل عولمة، فهو المخلوق الوحيد المؤهل لجلب فوائدها ودرء مفاسدها، ولذلك فإن قدرة الإنسان قد تتعدى قوة العولمة، على أن المقصود بالإنسان هنا، هو ذلك الإنسان المفكر الواعي بحقيقة الأشياء، فإذا كانت العولمة المعاصرة (أو التعولم الجديد كما يصفه)، يرتكز على عامل أساسي واستراتيجي هو الاقتصاد المسند من قبل ترسانة الاتصال والإعلام، فإن الإنسان قادر على تجاوز كل هذه المعطيات والمظاهر بفكره، لأنه بواسطة هذا الفكر يستطيع إبداع قيم، أقوى من قيم العولمة ذاتها، وامتلاكه لهذه الخاصية، تمكنه من أن يستوي ويستقيم حيث تتعثر العولمة أو تتصدع، فمهما بلغت العولمة من مكانة، تبقى إمكانيات ومؤهلات الإنسان أكبر وأقوى. لا مبرر للخوف أو الحزن، ولا قلق من التشرذم أو انهيار للهوية، لأنه لا وجود له أصلا. إن القضية ليست مصير الهوية في زمن التعولم الجديد، فهذه نظرة تجانب

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

الحقيقة، هذا طرح خاطئ لثنائية الهوية والعولمة، أو السيادة والعولمة أو الدولة (أو الأمة) والعولمة... وينبغي أن يكنس من الأذهان. لذلك - وتحديدا لقانون العولمة- يتقدم طه عبد الرحمن بتعريف للعولمة، يصوغه كالتالي:" العولمة هي تعقيل العالم بما يجعله يتحول إلى مجال واحد من العلاقات بين المجتمعات والأفراد عن طريق تحقيق مسيطرات ثلاث: "سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية"، و"سيطرة التقنية في حقل العلم"، و"سيطرة الشبكة في حقل الاتصال"(عبدالرحمن، ط، 2006، ص78).

ولما كانت العولمة- كما تقدم- فعلا يصنع التاريخ، فهي تؤثر في العالم، بفعل هذه الممارسة "التعقيلية" التي لا تنتهي عند حد أو تتوقف عند مرفأ. هذه الممارسة التي لا تفتأ تعمل على إحداث المزيد من التوحيد للعلاقات داخل العالم المعاصر، ستجعل هذا العالم، يغدو" نطاقا اجتماعيا واقتصاديا وسياسيا وثقافيا واحدا يؤلف بين أفراد البشرية كافة،....والعلاقات في هذا الإطار الموحد، ليست على شكل واحد، وإنما هي على أشكال مختلفة، ولاهي محصورة في مستوى واحد،...فسمة العلاقات في هذا النطاق العالمي الواحد هي التشابك بلا انتهاء، والتزايد بلا انقطاع، فالوحدة المتوحدة للنطاق العالمي، تجتمع إلى الكثرة المتكاثرة لعلاقاته"(عبدالرحمن، ط، 2006، ص78). هذا التشابك الذي يتم داخل الوحدة(العولمة)،لا يتم إلا من خلال تحقق تلك السيطرات الثلاث التي ستنتهي بحكم الطبيعة الأخلاقية للأفعال الإنسانية، إلى دفع الإنسان إلى الشعور بمسؤوليته تجاه العالم، مما يعطي لدلالة العولمة بعدها الحقيقي، وتعريفها الصحيح الذي سيصير يعني:" أنها السعي إلى تعقيل العالم، بما يجعله يتحول إلى مجال واحد من العلاقات الأخلاقية، أو قل مجال علاقي أخلاقي واحد." (عبد الرحمن، ط، 2006، ص90).

لا ينبغي الاستسلام والتشاؤم، والأمة العربية الاسلامية رغم "قزامة"اقتصادها وإعلامها، ورغم "رداءة" أحوالها السياسية والثقافية والعلمية إلخ.، في مقابل"عملقة" العالم الغربي، وقوة ترسانته الإعلامية، إذا تحرر مفكروها، وأدركوا حقيقة الواجبات الملقاة على عاتقهم، في ظل معطيات هذا التعولم الجديد، يستطيعون المساهمة في "خلق" إنسان عربي جديد، قادر على ولوج هذا التعولم الجديد، فيؤثر في توجيه مساره، أو يقوّم من اعوجاجه. وهذه المهمة المنوطة بالمفكر - في رأي طه عبد الرحمن- ، أكبر وأقدس وأنبل من المهمة أو الدور الذي يمارسه السياسي، وذلك لأن:"العمل السياسي سيكون محكوما بمقررات العملاق الاقتصادي، حتى إن الحكام العرب، لن يبقى لهم إلا تنفيذ التعليمات والأوامر التي تُفرض عليهم فرضا، فيكون المنقذ من هذه القاصمة، أو على الأقل، المشوِّش عليها، هو المفكر وحده." (عبدالرحمن، ط، 2003، ص157). إن مسؤولية المفكر إذن، على غاية من الخطورة، لأن مصير حياة الأمة السائرة في طريق النهضة، يقرره مفكروها، وحرية قولهم وفكرهم وفعلهم- متى كان هذا القول أو الفعل غير نافع- إذا لم تكن محل

محاسبة من قبل أمتهم، ستؤدي حتما إلى هلاكها، يقول الأستاذ طه عبد الرحمن :"كل أمة لا يحاسب فيها المفكر على ما قال، متى ثبت ضرر قوله، أمة تصير إلى حتفها، إن عاجلا أو آجلا." (عبدالرحمن، ط، 2003، ص158).

ويعد انفتاح المفكر على غيره من نظرائه المفكرين وتعاونه معهم، من بين الواجبات الأساسية التي تمكنهم من المساهمة في الاندماج الفاعل في هذا التعولم الجديد من غير تشاؤم، أو شعور بنقص أو دونية. لذلك يصر الأستاذ طه عبد الرحمن، على أن الصراع المستقبلي يكتسي طابعا ثقافيا وليس اقتصاديا، لأن:" الاقتصاد العالمي متى صار معلقا بعضه ببعض، حتى كاد أن يكون واحدا صمدا، فلا يبقى إلا الفكر الذي يمكن أن يكون مجالا لممارسة الحرية، والاختلاف والمنازعة." (عبدالرحمن، ط، 2003، ص158). ونقد الذات نقدا شاملا وعميقا، سيفتح الطريق للتخلص والقضاء على آفة التقليد التي تنخر الوعي العربي المعاصر، وتهيمن على تفكير متفلسفته ومنظريه، وتقليدهم للأقوى، فلا نجد في أفكارهم أو أقوالهم معالم إبداع أو تجديد، فهم"يؤولون إذا أول غيرهم، ويحفرون إذا حفر، ويفككون إذا فكك، سواء أصاب في ذلك أم أخطأ، وقد كانوا منذ زمن غير بعيد تواويين أو وجوديين أو شخصانيين أو ماديين جدليين ...كما لو أن أرض الفكر لم تكن واسعة فيتفسحوا فيها، وقد ينقلب الواحد منهم بين هذه المنازع المتباينة، من غير أن يجد غضاضة في ذلك، ولا أن يستحي من نفسه، بل مع وجود الاعتزاز بفعله، وحصول الاغترار بعلمه، كل ذلك بحجة أن ينهض بواجب الانخراط في الحداثة العالمية أو أن ينهض بواجب الاستجابة للشمولية الفلسفية." (عبدالرحمن، ط، 2008، ص12).

ذلك هو الواجب الأكبر في دعوة التجديد الصحيحة، وهو العمل على إغناء الإنسان العربي والمسلم والإبتعاد به عن هذه التشييئية القاتلة، وهذه المهمة لا تتم في رأي الأستاذ طه ، إلا من خلال العمل على تعيين وتشخيص مجموعة المقاصد والقيم التي تخص الأمة، والاعتماد على مجموعة الوسائل والوقائع المناسبة، هذا الواجب النضالي الملقى على عاتق المفكرين المخلصين، الواعين بمسؤولياتهم التاريخية والتداولية

- لكن، ما طبيعة هذه المهمة الفكرية النقدية، وكيف يتحقق التجديد وتتواصل الاستمرارية في زمن التعولم الجديد؟.

**2- النقد الأخلاقي للعولمة: في سبيل عولمة مهتدية متسامية.**

اقترح الأستاذ طه عبد الرحمن تعريفا محددا للعولمة، يتميز بتركيزه على الطبيعة"التعقيلية"، باعتبار العولمة فعل بالغ التأثير، ومستمر في الزمان، يستهدف تحقيق" ثلاث سيطرات"، كل واحدة منها تعمل على المساهمة في بناء وتعزيز، وتوحيد العلاقات داخل العالم، وهذه العلاقات ينبغي أن تكتسي طابعا أخلاقيا عند المرتبطين بنمطها، لنفصل في حقيقة هذه السيطرات:

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

أ- سيطرة الاقتصاد في حقل التنمية: لاشك أن أهمية الاقتصاد في هذا التعقيل العولمي، بديهية ليست في حاجة إلى برهان، بل إن الاقتصاد هو البرهان الأكبر في حركية هذه العولمة وإبراز معالم حركيتها الكاسحة، ولذاك يظل العامل الاقتصادي حاسما في كل تنمية ممكنة، وهو ما رسخ الاعتقاد وخاصة عند أهل الغرب من أن الاقتصاد قوة موجهة للنمو والتقدم، ومن ثم فإن معنى العولمة يتحدد بالمضمون الاقتصادي في المقام الأول( مجالات المال، والأعمال والتجارة ، ومختلف المبادلات...)، بل إن مفهوم العولمة ارتبط ظهوره تاريخيا بمجال الاقتصاد.

وبات الاقتناع تاما في المخيلة الغربية أن الاقتصاد الرأسمالي على وجه الدقة، هو اقتصاد إنساني من حيث وسائله غاياته، تتحكم فيه قوانين طبيعية عادلة، وهو وحده الكفيل بإخراج المجتمعات الإنسانية من الظلم والتسلط، لأنه يحقق توافقا طبيعيا للمصالح بين طبقات المجتمع، بل وهو خير للإنسانية جمعاء، ولذلك فإن هذا المنطق الرأسمالي فيما يضيف طه عبد الرحمن، جعل العولمة تطلق:" يد الشركات العملاقة التي تستثمر وتسوّق حيثما شاءت وكيفما شاءت، لا يحدها وطن ولا سيادة كما أقامت مؤسسات قوية تضمن لهذه الشركات مزيد من النفوذ والسلطان، كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي، ومنظمة التجارة العالمية." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص79)..إن السيطرة على الخارج، والسعي النهم واللا محدود لتجميع الثروات والأموال، أدت إلى تكريس السيطرة الرأسمالية عالميا. حتى صارت العلاقات (بين الأفراد والجماعات، أو بين المجتمعات،...) في ميدان التنمية ذات صبغة مادية محضة، فالمصلحة المادية هي المعيار في كل علاقة أو معاملة، وغابت، بل وغيبت القيم الأخلاقية والمعنوية، فلقد غدت تلك الشركات العابرة للأوطان والقارات" لا تعمل إلا بمبدأ السوق بلا قيد والتنافس بلا شرط، والربح بلا حد في سياق عالمي لا وجود فيه لمجتمع مدني عالمي، ولا لمؤسسات ذات سلطة يمكن أن تعاكس هذا التسيب الاقتصادي....حتى أن هذه الشركات، لا تتورع عن التحايل على القوانين، وممارسة الضغوط وإرشاء الهيئات والأشخاص لبلوغ أغراضها.... وهل نستغرب بعد هذا أن تتفشى هنا وهناك، الرشوة وتضعف الهمة، ويقل التضامن وتذهب المواطنة، وتنتشر الجريمة ويكثر الشذوذ، ويسود المخدِّر!" (عبدالرحمن، ط، 2006، ص80).

بيِّن إذن، أن هذا التقديس للاقتصاد وإنزاله منزلة"التأليه" ترتبت عليه أخطار وآفات أخلاقية، وبسبب انعدام الاعتبارات اللامادية، تكون التنمية الناشئة عن هذا الاقتصاد غير مفضية إلى صلاح أحوال الناس، لأنها فاقدة لمبدأ يطلق عليه طه عبد الرحمن، اسم "التزكية"الذي يقتضى أن في كل مصلحة توجد منفعة، لكن العكس ليس صحيحا، فليست كل منفعة مصلحة. ولذلك فالتزكية "لا تطلب عموم المنافع، وإنما تطلب"المصالح" منها، علما بأن المصالح - في معناها الأصلي- هي عبارة عن المنافع التي يتحقق بها صلاح الإنسان، فإذن أهل العولمة في علاقاتهم الاقتصادية،

ينفعون ولا يصلحون، وينمون ولا يزكون، إذ يشتغلون بتنمية مواردهم ويهملون تنمية أخلاقهم." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص80).

إن العولمة بهذا الوصف، تتجاهل الحدود الجغرافية والسياسية، ولا تولي أدنى اعتبار للأنظمة والحضارات، والقيم، إنها تؤدي إلى ما يصطلح عليه طه عبد الرحمن بـ"الإخلاد إلى الأرض"(عبدالرحمن، ط، 2012، ص212)، حيث يغدو صاحب هذا "الإخلاد"، مهوسا بتوسيع حاجاته الجسدية، ومن ثم لا ينظر في العولمة، سوى أنها:" انتشار تسليعي في العالم يوصِّل إلى الإخلاد إلى العالم المرئي، عن طريق العمل بالقيم التالية، وهي: "الحرية المتسيبة" و"التنافس المفترس" و"الربح المتوحش" و"الأنانية المفرطة" و"القوة المستبدة" و"المادية المنسقة"."(عبدالرحمن، ط، 2012، ص213). إن الإخلال بمبدأ التزكية، والذي هو في جوهره، إخلال في الجمع بين تنمية القيم المادية، وتنمية القيم الخلقية، مما سيجعل أخلاق أهل هذه العولمة:"أخلاق من وقعوا في تقديس الاقتصاد، بما يشبه تقديس العطاء الإلهي الذي لا ينقطع، وما الفتنة الاقتصادية التي ابتُلي بها الجميع، إلا ناطقة بهذا التأليه للاقتصاد." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص80).

ب- سيطرة التقنية في حقل العلم: لا شك أن التقنية معرفة تطبيقية، توجهها إرادة المعرفة العلمية، والتقابل بين العلم والتقنية، يشير إلى الأسبقية الزمنية للعلم عليها مما يجعل النظر إليها على أنها خادمة له، هذا "الفهم الكلاسيكي" لعلاقة العلم بالتقنية، يرفعه التصور العولمي، ويعتبر أن التداخل بينهما هو الأصل وليس التقابل، وهو ما أدى في نهاية الأمر، إلى أن: " تتسارع وتيرة الاكتشافات والاختراعات في مختلف مجالات المعرفة، حتى أصبح بعضها يثير أشد المخاوف المخاطر على مستقبل البشرية"(عبدالرحمن، ط، 2006، ص81). هذا التأثير المتبادل بين العلم والتقنية، عزَّزه نظام التعقيل الأداتي العولمي، ليجعل العلاقات التي تنشأ بين البشر، خاضعة للتجريب والتحسيب كقدر محتوم، وسيترتب على ذلك، نشوء أخطار وآفات أخلاقية، بسبب انعدام ما يطلق عليه طه عبد الرحمن"العمل المقصدي"( 2006، 82). فتعقيل العولمة ينظر إلى تلك العلاقات على أنها مجرد "إجراءات" وليست "أعمال"، يوضح الأستاذ طه مغزى هذا التعقيل قائلا:"...فمعلوم أن الإجراء فعل آلي، أي فعل نتحكم في مدخله ومخرجه معا، بينما العمل يأخذ بمقصد الشيء قبل أن يباشر التحكم فيه، والمقصد عبارة عن مخرج للشيء يجاوز مدخله، كما يجاوز مقصد حفظ الحياة، مثلا، فعل الإفطار في يوم سفر، إذ هو معنى قيمي أو حكمة أو مصلحة، تتعدى ظاهر الشيء، ولهذا، فلا مكان لمعنى"العمل المقصدي" في العلاقات الكونية التي تنتجها تبعية العلم للتقنية." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص82).

صار واضحا في الوعي الغربي، أن نظام التعقيل الأداتي، يعتبر أن للتقنية دورها الحاسم في توجيه العلم سواء، من خلال ما يستنبط من تطبيقاتها الميدانية، أو من خلال مقتضيات اقتصادية أو تجارية، أو من خلال وظيفتها الحضارية المتمثلة في التأثير الحي والمباشر، في التغيرات البنيوية للمجتمعات. وهذا التقديس للتقنية في مجال العلم، سيكون- لا محالة- سببا في طفو آفات أخلاقية، بحكم أنها فاقدة لمبدأ "العمل"، ولذلك فستستبد هذه الآفات بأرباب العولمة، والذين هيمن عليهم سلطان التعقيل الأداتي- كما تقدم- وهذا لأن"أخلاقهم من هذه الجهة، أخلاق الواقعين في تقديس للعلم والتقنية أشبه بتقديس العلم الإلهي الذي لا يُحد، وما الفتنة التقانية التي نراها من حولنا، إلا شاهد على هذا التأليه للتقنية." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص82).

ج- سيطرة الشبكة في حقل الاتصال:إن سيطرة شبكات الاتصال هي امتداد طبيعي لسيطرة التقنية، حيث تمكنت هذه الشبكات من خلق مجال من العلاقات غير المسبوقة بين البشر، فكان أن تقلصت المسافات وألغيت الحدود، وصار العالم قرية صغيرة، إن لم نقل بيتا كونيا، إن أبرز مظاهر هذه الشبكة الدولية الاتصالية والمعلوماتية، تجسد فيما يعرف بـ"الشبكة العنكبوتية"، أو"الإنترنت" التي أحدثت تغييرا راديكاليا وبنيويا في كيفيات وأساليب الاتصال والتواصل، فانتقلت بالبشرية من المستوى الضيق إلى المستوى العام، وما فتئ هذا التوسع يتزايد، مما أدى - ولا يزال- إلى تطورات مذهلة في حقل اندماج وتداخل وتكامل مختلف المعلومات ونقلها وتناقلها، فصار المشتركون والمرتبطون بهذه الشبكة المعلوماتية "وكأنهم يؤلفون عشيرة واحدة تستهلك معلومات واحدة "(عبدالرحمن، ط، 2006، ص83).

يلاحظ طه عبد الرحمن أن العلاقات بين رواد هذه الشبكة لا يمكن أن تؤدي إلى تواصل حقيقي، ولا أن تجعل مشتركيها بالفعل يعيشون في قرية واحدة كما يبدو ويشاع، فهؤلاء.....إن هذا التعقيل الاتصالي يمنع من" قيام تواصل حقيقي بين ذوات"الشبكيين" على منوال التواصل بين ذوات المواطنين، فالإشارة الضوئية(معلومات تنقل من آلة إلى آلة، وليس تفاعل حقيقي بين المُلقي والمتلقي)، هي صورة رمزية لا حياة فيها، وظاهر أنه لا تواصل بغير حياة، ثم أن الإعلان الإعلامي هو صورة تجارية لا تجرُّد فيها، وظاهر أنه لا تواصل بغير تجرُّد." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص84). وستكون النتيجة الحتمية لهذا التعقيل العولمي في هذا المجال الحيوي، هي إيقاع رواده في آفات خلقية، بسبب الإخلال بمبدأ التواصل، وهكذا فسيطرة الشبكة في حقل الاتصال تجعل :"أهل هذه العولمة في علاقاتهم الاتصالية يشتغلون بتناقل المعلومات، ولا يبالون بتجاوب الذوات، فأخلاقهم أخلاق الواقعين في تقديس المعلومات بما يشبه تقديس الكلام الإلهي، وما الفتنة المعلوماتية التي نشهدها بين أظهرنا إلا دليل على هذا التأليه للاتصال (عبدالرحمن، ط، 2006، ص84).

هذه السيطرات الثلاث، تعوق التعولم المعاصر من أن يصل إلى عالم علاقي أخلاقي واحد، رغم تحقيق عالم علاقي واحد، إذا صح الوصف.لقد ورّث هذه التعولم "فتنا"، تفاعلت لتؤدي إلى "أزمة أخلاقية"، مركبة ومعقدة، ولا سبيل له إلى التخلص من هذا الواقع المأزوم ودفع هذه الآفات من داخله، لأنه مهما حاول أن يجد"حلولا محلية" بإبداع قيم أخلاقية من طبيعته وجنسه، يبقى دائما عاجزا يراوح مكانه، فلا يقدر على دفع تلك الآفات، إلا إذا استعان واعتمد على قيم أخلاقية من خارجه. والحال، كيف يمكن الخروج من هذه الأزمة المثلثة؟ وهل لنظام العولمة أن يرشد البشرية، من ثم ينقذها من هذا التيه؟.

**3- المعالجة الإسلامية لدرء الآفات الخلقية للعولمة:**

يعتبر طه عبد الرحمن إذن، أن المفهوم الحالي والمتداول للعولمة، بعيد عن مضمونه الحقيقي وهو غير مكتمل، وسعيه إلى التعقيل لم يوصله إلى "التخليق"، أي أنه ظل دون تحويل العالم إلى مجال علاقي واحد، وتحقيق العلاقات الأخلاقية في التواصل البشري، والتي هي الغاية المثلى من وجود وتدافع بني الإنسان في الحياة. إن التعقيل الذي يسير في فلكه نظام التعولم المعاصر يظل ضيقا، لأنه تعقيل ذو طبيعة مادية خالصة. فكيف السبيل إلى الارتقاء إلى تحصيل التعقيل الروحي الموسّع؟.

يعتقد طه عبد الرحمن جازما أن بلوغ ذلك المقام، لا يبلغه إلا الإسلام الذي يملك "الأحقية" بدرء هذه الآفات الخلقية، فهو وحده القادر على قهر هذه العولمة، لأنه دين منزل، مختلف تمام الاختلاف عن نظام العولمة البشري الذي أفرز أخلاقا وقيما، يستحيل أن تؤدي إلى الوصول إلى تعقيل موسع، يحقق العيش الكريم للإنسان داخل هذه الشمولية، وإن تعددت الأخلاق الوضعية ، فلقد أدرك أرباب العولمة أن:"لا عاصم اليوم من طوفان العولمة، إلا سفينة الوحي الإلهي" (عبدالرحمن، ط، 2006، ص86). إن القوة القاهرة لهذا" التوحش العولمي"هي دين الإسلام، إذا فهمنا أن هناك ما يدعوه عبد الرحمن بـ"الزمن الأخلاقي الاسلامي" والذي يقابل الزمن التاريخي، فهذا الأخير يفيد أن الزمن الأخلاقي الذي يخص الدين الاسلامي، هو هذا العصر الذي تعيشه الإنسانية وهو بطبيعة عصر نظام العولمة الحالية. ولما كان الأمر على هذا الترتيب، يستنتج عبد الرحمن حقيقة ملفتة، هي أن:"العولمة حقيقة إسلامية، وإن لم تكن من صنع أيادي المسلمين أنفسهم، وكانت من صنع أيادي غيرهم." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص88).

لا يخشى طه عبد الرحمن استغراب أو استهجان البعض لهذه الدعوى التي يرافع من أجلها، فكما أوصلته تحليلاته إلى لأن الحداثة حقيقة إسلامية، فإن العولمة حقيقة إسلامية، لأنه يعتبر العولمة هي"الحداثة وقد وسعت العالم كله." (عبدالرحمن، ط، 2008، ص88). ويستنتج من هذه الرؤيا، أن الزمن الأخلاقي الحالي هو زمن المسلم، وبالتالي فهو مسؤول تاريخيا عن هذه العولمة، وذلك من

ISNN : 2253-0592 EISSN : 2588-199X / Prefix: 10.46315

خلال العمل على "تخليقها" فيسعى إلى" تفحص إمكانات التخلق التي تحملها، فإن كانت هذه الإمكانات تزيد في التخلق، أخذ بها وحثّ عليها، وإن كانت تنقص من هذا التخلق، استنهض همته في دفعها والتحذير وتغييرها، وإن كانت لا تزيد في التخلق ولا تنقص منه خُيِّر فيها، إن شاء أخذ بها وإن شاء دفعها."(عبدالرحمن، ط، 2006، ص89). هذه النظرة التصحيحية للعولمة إذن، هي من واجب الدين الاسلامي دون سواه، فهو يملك كل أسباب الارتقاء بها إلى مستوى تعقيلي موسع (= تخليقي)، وذلك بواسطة درء الآفات الخلقية في مجالات ومظاهر السيطرات الثلاث المشار إليها آنفا: المجال الاقتصادي المجال التقني، والمجال الاتصالي المعلوماتي. هذه المسؤولية العظمى والثقيلة، تنبئ أن الإنسان المسلم قَدَرُه أن يقوم بهذه الرسالة التخليقية للحداثة وللعولمة، لأنه يعيش"زمن القيم التي تجددت تجددها الآخر مع دينه." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص89). يعرض طه عبد الرحمن كيفية درء تلك الآفات، وفق اقتراحه لمبادئ إسلامية ثلاثة:

*- مبدأ ابتغاء الفضل: وصيغته كالأتي:"إن التنمية الصالحة لا تكون إلا بتكامل المقوم الاقتصادي، مع المقومات الأخرى للتنمية، مع دوام اتصاله بالأفق الروحي." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص90). عن طريق هذا المبدأ، يحدث الارتقاء من التنمية إلى التزكية من خلال تكامل الاقتصاد مع المقومات الأخرى، واتصاله بالأفق الروحي. فالتجارة في الإسلام ترتبط بهذا المبدأ وتقترن دوما بالاعتبارات الأخلاقية، خلافا لنظيرتها في اقتصاد السوق التي لا أخلاق فيها، وهكذا فالتنمية ستكون نافعة ومشروعة، متى كانت تسعى إلى تحقيق مقاصد خلقية وروحية عامة، متجاوزة تحصيل المصالح العاجلة وإشباع الرغبات المادية. إن مبدأ ابتغاء الفضل هو مراجعة لمفهومين اقتصاديين هما:"التنميةّ و"المنفعة"، وإعادة النظر فيهما من زاوية دينية إسلامية، يسمح بـ"تقرير تبعية الاقتصاد لمقومات التنمية الأخرى وتبعية المنفعة للأفق الروحي للإنسان، ومتى تقررت هذه التبعية للمقومات الأخرى وللأفق الروحي، صار بالإمكان الإرتقاء من نطاق التنمية الضيق، إلى رحاب التزكية الواسعة." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص97).

إن إقرار هذا المبدأ في الحياة الاقتصادية، معناه إخضاع التنمية الصالحة لسلطان الاقتصاد، وفق نظرة خاصة تستهدف تعقيلا خاصا(= تخليقا)، فالإنسان المسلم المعبر عن حركية هذه التنمية وتموجات مسارها، يعتبرها فعلا يندرج ضمن تعبده، ولا يلتفت البتة إلى الطمع والجشع، ولا يلهث وراء الربح المادي اللامحدود، فلا يكون أنانيا أو مستبدا أو متسلطا... ونظام العولمة الجديدة، أي العولمة المعاصرة، خال من هذه المقاصد والغايات، إنه يستبيح الإنسان والطبيعة معا. وسلوكات أرباب العولمة بسبب بعدهم عن تلك المقاصد أدت إلى: "فساد كبير في العالم يتجلى في إيذاء الطبيعة، بما يجعل آثار هذا الأذى تقع على غير فاعليه، فضلا عن فاعليه، كما يتجلى في

إيذاء الآخرين، بما يجعل آثار هذا الأذى تضر بكرامتهم، ويتجلى أخيرا في الفرد نفسه، بما يجعل هذا الأذى يضر بسعادته." (عبدالرحمن، ط، 2012، ص217).

*- مبدأ الاعتبار: يصوغه طه عبد الرحمن في التقرير التالي: "إن العلم النافع لا يكون إلا بالنظر في حكمة الشيء قبل سببه، وفي مآله قبل حاله." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص93). إن الدين الاسلامي الخاتم، يرتقي بالعلم من رتبة "الإجراءات" إلى رتبة "الأعمال"، وذلك لأنه يقدر الأفعال في آجلها، ليس في عاجلها، فالنظر الإجرائي محدود ويقتصر على إدراك الأسباب، بينما النظر الاعتباري، يتعدى هذه الحدود لبلوغ وإدراك المقاصد والحكم التي بواسطتها يتحقق كمال الفعل، ومن الواضح أن المعتبر إذا وفق واهتدى إلى تلك الحكمة من الفعل، جعل سببها تابعا لها، فيعمل على العمل بذلك السبب، وإن وجد هذا الأخير، مخالفا ترك العمل به. يضيف طه عبد الرحمن: "وهكذا يتضح أن المعرفة في سياق النظر الاعتباري، تقيِّد تعقُّل أسباب الأشياء، بتعقل القيم الخلقية التي تنطوي عليها هذه الأشياء، ومن ثم، تخرج هذه المعرفة عن أن تكون مجرد جملة إمكانات تقنية، قد تنفع أو تضر كما هو الشأن في النظر الإجرائي لكي تصبح عملية تنفع أو تضر." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص93). إن النظر الاعتباري في التعقيل الاسلامي للعولمة-كما في الحداثة أيضا- يقدر الفعل في آجله،

ويقبل عليه لا في نفع حاله، بل في نفع مآله، بل وأكثر من ذلك فقد يقبل عليه حتى ولو في ضرر حاله ونفع مآله، يوضح الأستاذ طه هذه الجزئية المهمة في هذا المبدأ، والتي تقتضي دوما تقديم المآل على الحال، قائلا:"...أن لا نندفع في تطبيقات العلوم إلا بالقدر الذي يعود بالنفع على الناس، على خلاف ما نراه في حاضر الإجراءات التقنية، حتى أضحى راسخا في العقول أن الخير كله في العلم والتقنية." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص94).

يتعاكس إذن، التعقيل العولمي المعاصر المضيق مع التعقيل الموسع في التطبيق الاسلامي، فالتعقيل الغربي يظل دائما عند عتبة النظر الاعتباري بحكم خلوه من الـ"خلقية"في أفعاله بحيث لا يقدر تلك الأفعال في آجلها، بل في عاجلها، وهو يقبل عليها في نفع حالها ولا يكترث إلى ضرر آجلها. وهذا يكون مبدأ الاعتبار الإسلامي لا يراعي الأسباب والأحوال فقط، بل يحرص على المقاصد والمآلات. وهذه النظرة الأخلاقية، التكاملية، الإنسانية، السامية، الهادية،إسلامية خالصة جاء بها هذا الدين الذي لا دين بعده، ولا أثر لمثيل أو مشابه لها، فليس كل تطبيق تقني أو علمي نافعا أو مشروعا، وينبغي التركيز في الأشياء على تبعية أسبابها للحكم منها، وبهذا التحديد، فإن مبدأ الاعتبار" يقضي بأن نجعل حدا للهرولة الشديدة إلى التطبيقات التقنية للعلم، بل يقضي بأن نراجع مدلول البحث العلمي نفسه..." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص94).

*- مبدأ التعارف: وصيغته:"أن التواصل السليم لا يكون إلا بكلام طيب، بين متكلمين بعضهم أكرم من بعض." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص95). لا شك أن التواصل أوسع من الحوار، وأن التعارف أعم من الاتصال، لكن يبقى الحوار عبارة عن ممارسة تواصلية خاصة. والمقصود بالتعارف عند الأستاذ طه عبد الرحمن هو"التواصل بواسطة الخطاب"، وحتى يكون هذا التعارف تواصلا خيريا (أي حوار أو خطاب متبادل) يجب أن يكون خيرا أو كما ينعته"معروفا" يؤثر بالإيجاب في شخص المتلقي، أي يكون نافعا يُصلح الأخلاق، لأن مقامه الكلمة الطيبة، حيث:"يصير تناقل الأخبار بين الملقي والمتلقي عبارة عن تناقل لخيرات وطيبات، ومن ثم، تخرج الأخبار عن كونها مجرد معلومات قد تضر أو تنفع، إلى مقام الكلمات الطيبات، أو باصطلاحنا" المعروفات"..."(عبدالرحمن، ط، 2006، ص95). إن "المعروفة" بخلاف"المعلومة"، فالأولى تمكن الإنسان من التزود بالقيم الخلقية العليا التي يتطلع إلى بلوغها بينما الثانية لا تدفع على التنبه إلى ما يوافق أو لا يوافق ذلك التطلع، نقرأ لعبد الرحمن هذه الفقرة التوضيحية: "فالمعلومة وإن كانت خبرا مثل المعرفة، فإنها تختلف عنها من جهتين: إحداهما أن الخبر المعلومي لا ينبهنا على ما يوافق أو يخالف القيم العليا التي نسعى إلى تحقيقها، بل لا يبالي بمدى قدرته أو عدم قدرته على تزكية نفوسنا، لأن السبب فيه ليس الاستجابة لمقاصد إنسانية محددة بقدر ما هو تداعي الاختراعات التقنية بين أيدي الإنسان، أما الخبر المعرفي، فهمُّه الأول هو أن يزودنا بهذه القيم، ويستجيب لهذه المقاصد لإصلاح سلوكنا، بحيث تكون المعرفة نفسها قيمة عليا، ويكون طلبها فضيلة، والجهة الثانية أن الباعث على تحصيل المعلومة هو إرادة القوة، بينما الباعث على تحصيل المعرفة هو إرادة الاستقامة، وشتان بين تينك الإرادتين: فالأولى تطلب السيادة المتزايدة على أطراف العالم، والثانية تطلب السيادة المتواصلة على أهواء الذات، ولا تتحقق إنسانية الإنسان إلا بالقدر الذي يجعل إرادة القوة عنده تابعة لإرادة الاستقامة، وعلى هذا، فإن "الإنسان كائن معرفي قبل أن يكون كائنا معلوماتيا." (عبدالرحمن، ط، 2005، ص204).

يبدو واضحا أن هناك أخلاقية ظاهرة وصريحة بين المتواصلَين(الملقي والمتلقي)، مما يسمح بخلق فضاء أو آفاق رحبة وواسعة، تعززها قيم التسامح والاحترام المتبادل والتنافس الشريف والتعاون المثمر في ظل وجود الوعي بوجود تفاوت أخلاقي بينهما، مما يدفع أكثر إلى تقوية التعارف وتعميق المعارف وتوسيعها. هذا الوضع القائم بينهما الذي يميزه حسن المعاملة والروح التنافسية التي قد تصل بأن: "يفضل احدهما الآخر، لأنه تنافس في التخلق، والتخلق ليس له حد يقف عنده، فإذا زاد عند أحد المتنافسين كان أكرمهما، وإذا نقص كان دون ذلك كرما." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص96). هذا الاعتراف بفضل أحدهما على الأخر، والذي من جهة، يعكس اختلافهما، لكنه يخلق وعيا بالتميز والخصوصية الثقافية، يدفع تدريجيا إلى حاجة احدهما للأخر في التقارب والتعاون،

بغية التعرف أكثر على ما يتفرد به، وهكذا يكون مبدأ التعارف الذي ينبني عليه التعقيل الإسلامي، علاوة على اعترافه بالتفاوت الأخلاقي بين المتحاورَين "يقر بالاختلاف الثقافي بين المتعارفَين، لأنه سبب في توسيع دائرة معارفهما، بينما الاتصال المعلوماتي يلغي كليا عنصر الأخلاق في المعلومات، ويعمل على محو الاختلاف الثقافي لصالح ثقافة الملقي وحده." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص96).

إن التعقيل الذي يميز العولمة، والذي يجعل التنمية خاضعة للآلة الاقتصادية، والعلم يرزح تحت قبضة التطبيقات التقنية، والاتصال يتحكم فيه سلطان الشبكة، يؤدي- في الحال والمآل- إلى الآفات الخلقية التي لا سبيل إلى دفعها والقضاء عليها إلا بالتدخل التاريخي للدين الاسلامي، لأنه الدين الخاتم، هذا يعني أن المسلمين اليوم، مطالبون بوعيهم بالتحمل الكامل لمسؤوليتهم الحضارية والتاريخية، في توجيه العولمة نحو التعقيل الموسع المناسب لها، لأنها عولمة زمنهم الأخلاقي "الذي خلق لهم دون سواهم، ولا خوف عليهم من زحفها ولا من هولها، متى سارعوا إلى النهوض بهذه المسؤولية، فهمُّة الإنسان أكبر من أن تقهرها قوة العولمة، وعدة المسلم أقوى من أن تقهرها عظمة المسؤولية." (عبدالرحمن، ط، 2006، ص98).

لا خوف على المسلمين، ولا هم يحزنون، فالعولمة المعاصرة قَدرهم، ولديهم كل أسباب التحكم في تعقيلها التعقيل الموسع(التخليق)،لأن لديهم دين ليس كمثله دين" لكون إمكاناته الأخلاقية تَسَع إمكانات غيره من الأديان السماوية وتزيد عليها." (عبدالرحمن، ط، 2012، ص140).

ويعتقد الأستاذ طه أنه باستبعاد عنصر أساسي في كل دين، يتعذر تحقيق التقدم بالخلقية البشرية، هذا العنصر الرئيس والمركزي هو "الإيمان"، ولما كانت الأديان تتفاوت في مضمونها ومكوناتها الاعتقادية والعملية، فإنه من المنطقي أن يكون البحث عن التقدم الأخلاقي في الدين الأقدر على تحقيق ذلك التقدم، متى تم الوقوف على هذا الدين، وثبت أن هذه الأديان عجزت وهي مجتمعة، فإن تحقيق هذه "النهضة الأخلاقية" كاملة، لا يستطيعها إلا دين واحد، هو الإسلام، بحكم أنه قادر على استيفاء شروط ومعايير التقدم الأخلاقي على الوجه الكامل، وبناء على ذلك يكون هذا الدين هو" الدين الأوفى بالمتطلبات الأخلاقية القادرة على إخراج عالمنا المعاصر من أزماته الاجتماعية والاقتصادية والبيئية، حتى يقوم الدليل على خلاف ذلك" ( عبد الرحمن، ط، 2012، ص140).

**4- وقفة نقدية:**

يخلص الأستاذ في نهاية تشابكه مع سؤال العولمة، إلى أنه لا سبيل إلى درء مفاسد هذا التعولم الذي نعيشه، إلا بوضع الأخلاقيات التي يجب على العولمة الالتزام بها، وليس الأخلاقيات التي تفرزها العولمة. والمطلع على فكر الرجل والآليات والأسس التي ينطلق منها والغايات التي ينشدها، يدرك أن مشروعه يمثل أقوى شهادة على أن الأخلاق هي المجال المركزي للإسلام. لكن هذه

الممارسة النقدية "الخارجية" للحداثة والعولمة، ولغيرهما من الموضوعات...، وكذا اختياراته الفكرية، وبرنامجه التخلقي ذي المسحة الصوفية الزاهدة القائمة، على سلطة الرضى عن النفس المؤيدة برضى الله، كل ذلك يزج بجهوده في اتجاه يوحي - وبشكل مباشر - أنه عوض أن ينقد الحداثة والعولمة من الداخل،أي بالتركيز على عوامل موضوعية -لا روحية ذاتية- تتعلق بمعطيات التاريخ، بما يسمح من تنويع الجوانب والزوايا التي تطالها هذه الحركة النقدية، راح يتخلى عن هذه المهمة، معتقدا أن في تجربته التخلقية الروحية، طريق للخلاص التام من"حيوانية وبهيمية، وتوحش وهمجية"الحداثة الغربية.

فهل نستطيع بهذا "المنجز" المعرفي والنقدي،الذي يقوم على"الرياضة الصوفية"، مواجهة التاريخ والمجتمع، والمساهمة النضالية الفعالة من أجل مستقبل بديل؟.

إن طه عبد الرحمن بجعله العقل والحرية والتاريخ...،مسائل تقع خارج أو بمحاذاة ما يكتب، رغم استخدامه للفلسفة والبلاغة والمنطق، لينتصر إلى التزكية، والسداد، والشهادة ،والمجاهدة، والمعاناة النفسية، والمكابدة الذاتية... يكون قد ابتعد عن منجزات ومكاسب تاريخ الفلسفة، ويكون مشروعه الفكري، رغم تماسكه النظري والمنطقي، بعيدا عن التحقق. فلا يمكن تجديد الفكر العربي والإسلامي بمفاهيم ذات الشأن الخاص(الرؤيا الذاتية، التجربة الروحية، صفاء السيرة، متعة البصيرة، الحدوسات والجماليات.....).إن هذا الطريق يؤدي إلى انتاج وتركيب نصوص ذات جمالية محسوسة، لكنه لن يسهم في معالجة قضايا التاريخ وعلله، ولن يكون مسلكا لحل الأزمات الاجتماعية المستعصية. بل هو نوع من الهروب من المسؤولية التاريخية للمثقف.

والحق أن هذا التوجه العرفاني في تفكير طه عبد الرحمن، ليس وليد ظروف مستجدة، فالرجل منذ بداية اشتغاله بالدرس الفكري والفلسفي، كان من المدافعين عن هذا التوجه، فانخرط في نقاشات وجدالات حادة مع غيره من الباحثين في المغرب الأقصى وخارجه. فلقد دعا محمد عابد الجابري( 1936- 2010) من خلال مشروعه "نقد العقل العربي"، إلى مناهضة كل نزعة تقول" بوجود قوة روحية في الإنسان فوق مستوى العقل،....إنها اللاعقلانية،...إنها القفز على مملكة العقل، والخوض في مجالات اللاعقل" ( الجابري، م، ع، 151،1990). وفي مؤلفه "نقد العقل الأخلاقي" وهو الكتاب الرابع من رباعية نقد العقل العربي، وفي الباب الثالث منه والذي عنونه بـ" الموروث الصوفي ،أخلاق الفناء...وفناء الأخلاق"، لاحظ الجابري، أن العودة إلى التجربة الصوفية تؤدي الى تزكية قيم الطاعة(علاقة الشيخ بالمريد) والتوكل(الخوف من الآخرة)، وهو ما يؤدي إلى الانغلاق والانكفاء على الذات، مما يعطل مصالح الناس العاملين في التاريخ، يقول الجابري :" ليس غريبا إذن أن ينتهي انتشار "التصوف"في العالم العربي والإسلامي منذ الغزالي إلى صرف أهله عن التفكير في المستقبل والعمل من أجله(....) والحق أن أخلاق الفناء لا تنتهي إلى فناء الأخلاق

وحسب، بل وإلى فناء الأمم. ولم يكن مصادفة أن قامت حركة الإصلاح في العصر الحديث على محاربة الطرقية."( الجابري، م، ع، 2001، 488).

لم يكترث طه عبد الرحمن في سجاله مع الجابري وغيره، وظل مرافعا ومدافعا عن طروحاته، معتبرا أن العرفانية التي ينزلها الجابري وغيره مرتبة دنيا، هي الرتبة العليا في مراتب العقلانية(عبد الرحمن، ط،202،2000)، ولايزال الرجل وفيا لهذا الخط الفكري"الروحاني"، حيث أن كتاباته الصادرة في السنوات القليلة الماضية تؤكد ذلك، بدءا من "بوؤس الدهرانية"(2014)، و" شرود مابعد الدهرانية"(2015)، و"سؤال العنف"(2017)، و"دين الحياء" من الفقه الإئتماري إلى الفقه الائتماني(03أجزاء) الصادر عام2017. ففي هذا المؤلف الأخير يزداد طه عبد الرحمن تمسكا وتشبثا بالمنحى الصوفي-الطرقي(انتسابه إلى الطريقة البودشيشية في المغرب الأقصى)،لاسيما في الجزء الثالث(روح الحجاب)،حيث تعرض في الخاتمة (بدءا من ص 155إلى ص 177) لفضل الشيخ في الطريقة، ودوره المركزي في العمل على"تزكية النفس"والتوجيه الصائب نحو معرفة الله.....

وبعد، فإن ما يثير الحيرة في أعمال هذا المفكر المتميز، هو أن مشروعه يروم كما يقول، النهوض والتجديد. لكن هل يكون ذلك بإقصاء العقل المجرد،العقل المدعم بالتجارب البشرية التاريخية والاجتماعية، والاعتماد على"المشاهدات"و"التجليات"و"السفر في الزمان" و"المشي على سطح الماء"، ولغة القرب، وشق الصدر، إلخ....؟!.

نعود ونقول مع أحد الباحثين الجزائريين: "طه عبد الرحمن كمفكر متأصل في هويته الإسلامية وخصوصيته المغاربية، من حقه أن ينظر لما يراه. لكن ليس بالضرورة أن نقع في دائرة رفض الأشكال التعبيرية التي لا تتماشى ورؤية الفيلسوف، فنحن ندين في تكويننا الفلسفي لكل أنواع التعبير الفلسفي، كما نعترف بفضل جميع أنواع الترجمة في تلقي القول الفلسفي سواء كان ثقيلا أو خفيفا. لكن أن نجعل كل شيء مؤصلا ومؤثلا بالدمغة الإسلامية ،يجعل مشروعه يفقد الراهنية وحتى عقوله الثلاثة، لا يمكن أن تجد لنفسها مقاما، **كما أن توغله في التصوف وعالم العرفان يجعله بعيدا عن هموم عصره**"( حوار مع عبد القادر بوعرفة، 2012).

**- خاتمة:**

يلمس القارئ لأفكار عبد الرحمن، الكيفية المتينة والأسلوب الرصين في بسطها، بحيث تبدو في بناء هندسي فيه تناسق وتكامل، وهذا يكشف تأثير طريقة "المنطق" في التشقيق والاستدلال والبرهنة والعرض، فالرجل في مساره الفكري، انتقل من الشعر إلى المنطق وفلسفة اللغة، ثم إلى التنظير الفلسفي، بفضل هذه الحاسة المنطقية والنقدية واللغوية التي يمتلكها. مما يجعل القارئ وهو يتتبع مسارات عرضه وتحليلاته، يسير في اتجاه منهجي، وكأنه مجبر على بلوغ نهايته. وهنا،

يُلاحظ أن طه عبد الرحمن يركز كثيرا على مضمون "السلبيات" والانطلاق من نقدها المكثف، إلى مرحلة التنظير، مع قدرة ملموسة على امتلاك ناصية اللغة العربية واستثمارها وتوظيفها بتميز وخصوصية. إن أسلوبه في العرض الذي يتميز بالحرص على التوضيح الكافي، يعكس تلك القوة النظرية الخارقة في أفكاره.

بيد أن واقع الأشياء والأمور قد لا يتوافق مع هذه الأفكار دائما. واشتباكه مع الأسئلة الفلسفية الحضارية الكبرى(سؤال الأخلاق، الحداثة، العمل، المنهج،....) باحترافية منهجية ونقدية ظاهرة، لا ينأى به عن ارتمائه في براثن الإيديولوجيا، ففي مدونته، بوجه عام، إصرار على الدعوة إلى "رياضة" دينية أخلاقية، كما وأن معالجته تقوم على إلغاء الخصوصيات باسم الشمولية الدينية.

ويبدو أن إسهامه الفكري في الحداثة أو الأخلاق أو العولمة قد يحتوي على بعض اليوتوبيا أو المثالية، بينما مقتضيات الوضع العربي والإسلامي الراهن، وعلى جميع المجالات والأصعدة، تستوجب مزيدا من الانخراط الإيجابي في التاريخ. إن دعاوى طه الرحمن واختياراته الفكرية، فيما يلاحظ الباحث المغربي كمال عبد اللطيف (2003، 147)، ومشروعه التخلقي وممارسته النقدية التي يتغلغل فيها الحضور الصوفي، تجعلنا نقف أمام إشكال كبير وهو:" هل تنفع مفاهيم التجربة الصوفية في نقد ثقافة التاريخ وتجارب التاريخ؟".

## المصادر والمراجع:

-عبد الرحمن، طه،(2000).سؤال الأخلاق، مساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية):(الطبعة الأولى). الدار البيضاء. المغرب- لبنان. بيروت: المركز الثقافي العربي..

- عبد الرحمن، طه، (2003).حوارات من أجل المستقبل: (الطبعة الأولى). بيروت. لبنان: دار الهادي للطباعة والنشر والتوزيع.

- عبد الرحمن، طه،(2006). روح الحداثة (المدخل إلى تأسيس الحداثة الاسلامية): (الطبعة الأولى). الدار البيضاء. المغرب- لبنان. بيروت: المركز الثقافي العربي.

- عبد الرحمن، طه،(2012). سؤال العمل (بحث عن الأصول العملية في الفكر والعلم): (الطبعة الأولى). الدار البيضاء. المغرب- لبنان. بيروت: المركز الثقافي العربي.

- عبد الرحمن، طه،(2008).فقه الفلسفة 2 (كتاب المفهوم والتأثيل): (الطبعة الثالثة). الدار البيضاء. المغرب- لبنان. بيروت: المركز الثقافي العربي.

- عبد الرحمن، طه،(2006). الحق العربي في الاختلاف الفلسفي: (الطبعة الثانية). الدار البيضاء. المغرب- لبنان. بيروت: المركز الثقافي العربي.

- عبد الرحمن، طه،(2005). الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري: (الطبعة الأولى). الدار البيضاء. المغرب- لبنان. بيروت: المركز الثقافي العربي.

- عبد الرحمن، طه،(2017). دين الحياء، من الفقه الإئتماري على الفقه الائتماني، ج3(روح الحجاب(الطبعة الأولى). بيروت. لبنان. المؤسسة العربية للفكر والإبداع.

- عبد اللطيف، كمال،(2003).أسئلة الفكر الفلسفي في المغرب: (الطبعة الأولى). الدار البيضاء. المغرب- لبنان. بيروت: المركز الثقافي العربي.

- الجابري، محمد عابد،(1990).اشكاليات الفكر العربي المعاصر:( الطبعة الثانية). بيروت. لبنان. مركز دراسات الوحدة العربية.

- الجابري، محمد عابد،(2001).العقل الأخلاقي العربي، دراسة تحليلية نقدية لنظم القيم في الثقافة العربية:( الطبعة الأولى). بيروت. لبنان. مركز دراسات الوحدة العربية.

- عبد القادر بوعرفة في حوار فلسفي أجراه معه نور الدين علوش للجريدة الالكترونية: الحوار المتمدن،العدد3785 بتاريخ 2012/07/11. تم الاسترجاع من الرابط:
http:/www.ahewar.org/debat/show.art.asp?aid=315301.